محمّد المبارك
عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقاً
رئيس شعبة الدراسات الاسلامية
في جامعة ام درمان الاسلامية

العقيدة في القرآن الكريم

بحث مُبتكر في نهج القرآن الكريم في عرض العقيدة وأساليبه في الدّعوة إلى الإيمان بها ويتضمن نظرة الإسلام العامّة إلى الوجود مُستخلصة من الكتاب الكريم.

دار الفكر

اعد هذا البحث والقي في الندوة العلمية للقرآن الكريم التي نظمتها جامعة ام درمان الاسلامية واشترك فيها عدد من كبار اساتذة الشريعة والأدب والفلسفة من جامعات الازهر والقاهرة والاسكندرية ودمشق بمناسبة مرور اربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم وذلك في الاسبوع الاول من شهر ذي الحجة ١٣٨٨ وشهر آذار (مارس) ١٩٦٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي كرم الانسان . ودعاه الى التفكر في آياته المبثوثة في نفسه وفي الاكوان ، والصلوات الطيبات على رسله الذين اختارهم ليسددوا خطاه حيث يقف به تفكيره وتزل قدماه ، ويزكّوا فيه تلك النفحة الالهية الاولى ، والصلوات المباركات على من ختم برسالته النبوات لتكون دليل الانسانية كلها بعد ان بلغت مرحلة رشدها ، توجهها الى الخير وتفتح لها الآفاق وتدفعها الى المسير على اساس من الصلة بالله والشعور بالمسؤولية والمصير وبعد :

فقد بلغت الانسانية في العصر الحاضر شأواً بعيداً في العلم واكتشافه المستمر لآفاق الكون والانسان وفي تطبيقاته العملية التي ادت الى تقدم هائل في الصناعة ومنتجاتها وفي الترفيه عن الانسان بمختلف الخدمات والمرافق ووسائل الرفاهية بنتيجة التقدم العلمي والصناعي . ولكن ذلك كله لم يكسب الانسان الطمأنينة ولم يوصله الى الغبطة والسعادة بل زادت في اغلب الاحيان آلامه وهمومه وفتحت امامه آفاقاً جديدة للصراع والنزاع . لذلك

كان البشر محتاجين بالاضافة الى هذا التقدم العلمي والصناعي الى العقيدة القرآنية المتضمنة للايمان بالحقائق الكبرى التي هي وراء الحقائق الكونية والتي تكمل نقصها وتضع الانسان معها على قاعدة سليمة يرتكز عليها ويطمئن اليها .

ولكن لكل عصر اساليبه المنطقية وطرائقه الفكرية وقضاياه ومشكلاته ، ولذلك وجب ان تعرض العقيدة القرآنية مع ثباتها من حيث المضمون وفقاً لاساليب عصرنا في التفكير ، وان تعرض من خلال قضاياه ومشكلاته ، وفي مقابلة العقائد القائمة المستجدة . فينبغي لمن يعرضها ان يستحضر موقف الفكر الحديث من مبدأ السببية والقانون العلمي وان يضمنها الرد على مثل مزاعم اوكست كونت في تعارض الفكر العلمي والفكر الديني ، وعلى تفكير دوركهايم في الآله ، وعلى زعم ماركس من ان المادة هي اصل الوجود وكل ما سواها انعكاس لها ، وعلى زعم القائلين ، بسطحية عجيبة ، ان اكتشاف قوانين الطبيعة اغنى عن الايمان بالله . ان كل هذه العقائد والمزاعم يجب ان تكون حاضرة في ذهن من يريد عرض العقيدة القرآنية حين يعرضها . وانا لا اقول انه يجب ان يقحمها في عرضه ، ولكن عليه ان يضمّن عرضه الموقف الصحيح الذي يدحضها ويسقطها ، وان يكسب مخاطبه العصمة من الوقوع في مزالقها اذا كان في عرضه مستحضراً لها موازناً بينها وبين العقيدة الصحيحة ، مشيراً الى تهافتها ونقصانها .

ان علماء الكلام وهم الباحثون قديماً في العقيدة الاسلامية قاموا جزاهم الله خيراً مقام المدافع عنها في عصرهم في وجه

خصومها واعدائها من اصحاب العقائد والفلسفات الاخرى . ولكنهم واجهوا فلسفة معينة وعقائد معينة ومشكلات او قضايا معينة ، فكان عرضهم لهذه العقيدة الاسلامية ملوناً بلون الثقافة التي واجهوها وظروف البيئة الفكرية التي عاشوا فيها او واجهوها . وكانوا في موقفهم هذا الذي تسلحوا فيه بسلاح خصومهم ووقفوا في خطوط الهجوم نفسها موفقين ومشكورين . وكان نتاج عملهم ذلك التراث الضخم سواء اكان في الاتجاه السني او المعتزلي والذي كان من اعلامه الاشعري والباقلاني والغزالي وابن رشد والتفتازاني وابن تيمية والقاضي عبد الجبار . . . وغيرهم .

وكانت تلك الآثار القيمة التي امتزجت فيها احياناً العقيدة بالفلسفة والتي انتجت فلسفة جديدة في مثل تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد والرد على المناطقة لابن تيمية .

وانتهت هذه الآثار الضخمة التي مثلت صراع العقيدة الاسلامية مع العقائد الاخرى الى متون صيغت فيها الآراء النهائية في خلاصات كثيفة وجمل موجزة معقدة احياناً ، اطلق عليها عنوان العقائد او التوحيد ، مع انها تحتوي كثيراً من مسائل الفلسفة القديمة الى جانب اصول العقيدة .

وانتهى الامر الى ان خلط الناس بين مبادىء العقيدة واسلوب عرضها او بينها وبين وسائل الدفاع عنها ، وتمسك المتعلمون والمعلمون بالأمرين معاً على حد سواء ، ولم يفرقوا بين عقيدة خالدة واسلوب زمني عارض قابل للتبدل . ان هذا

الجانب من التراث الاسلامي اعني علم الكلام في مختلف مراحله واطواره تراث ثمين يجب ان يدرسه المتخصصون ، ولكنه ليس هو الطريق في عصرنا الحاضر لدراسة العقيدة الاسلامية وعرضها على الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت حظوظهم من الثقافة . فقد اصبحت بعض مسلمات الفلسفة القديمة التي تسلح بها علماء الكلام موضوع جدل واختلاف ان لم تكن مرفوضة اصلاً حتى ان مبدأ الهوية نفسه ومبدأ تمانع الاضداد ينكره المنطق الهيجلي والماركسي .

وطريقة علم الكلام للخواص وليست للجمهور ، والقرآن انما خاطب الجمهور خاصته وعامته . وكذلك جميع الدعوات التي تريد لنفسها النجاح . فعلم الكلام يستند الى صناعة المنطق ولم نر المنطق المجرد الجاف ، باقيسته وقضاياه الكلية والجزئية ، والموجبة والسالبة ، كان في يوم من الايام طريقاً لدخول الناس في عقيدة او مذهب او دين .

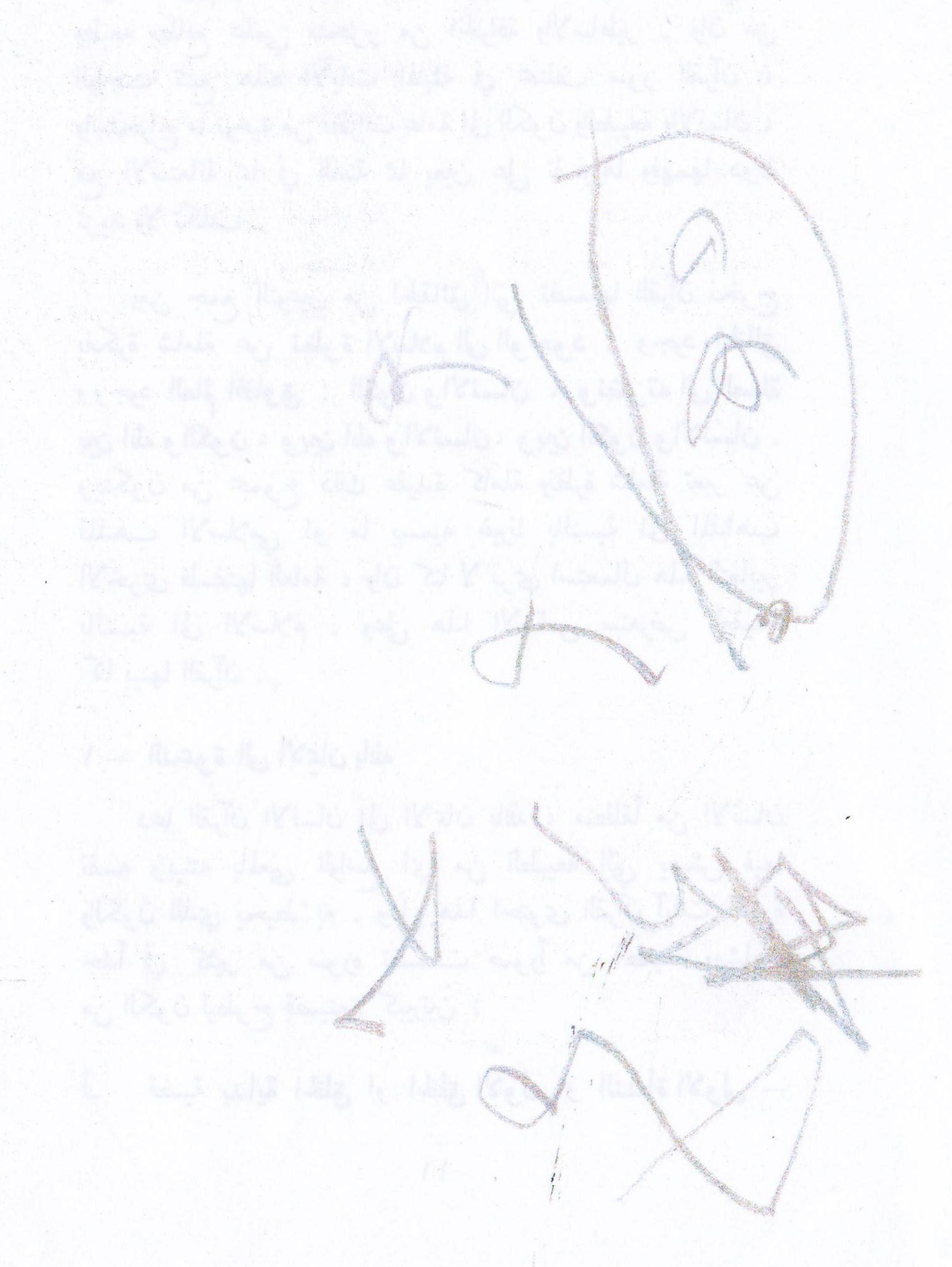
ان المنطق في ذاته ضروري ، ولكن ليس من الضروري لنجاح الدعوة الى عقيدة او مذهب ان يصاغ صياغة فنية وان يوضع في القوالب الصناعية المعروفة . فالمنطق يسري ضمناً في كلام الناس عامتهم وخاصتهم دون ان يتعلموا تعابيره الفنية . اضف الى هذا ان المنطق ليس العنصر الوحيد لاقناع الناس بعقيدة او مذهب . والمنطق المجرد قلما ينفذ الى اعماق النفوس ، اذ لا بد له من عناصر اخرى تعينه وتزينه وتجعله مستساغاً مقبولاً ، فدوافع العاطفة واغراء الناس بما ينفعهم او يلذهم كلها عناصر هامة مساعدة .

والمؤلفون في العقيدة في هذا العصر على تفاوتهم في التحرر من اسلوب قدماء المتكلمين لم يستطيعوا ان يخرجوا عن الأطر المرسومة ، والتعابير المعهودة ، والمسائل المبحوثة ، ولذلك لم يكونوا دعاة ناجحين وجل ما يمكن ان يصلوا اليه ان يكونوا مناظرين مجيدين .

ولو عدنا الى القرآن الكريم ننهل العقيدة ونلتمس الايمان من ينبوعه الاصلي لوجدنا مجالاً ارحب وافقاً اوسع ومادة اخصب وغوراً ابعد ، ولوجدنا اسلوباً اكثر تنوعاً وحيوية واشد صلة بحياة الانسان وعواطفه .

من اجل هذه الاسباب السابقة كلها رأيت انه لا بد من عرض جديد للعقيدة بالعودة الى القرآن الكريم نفسه لاستخراج عناصر هذه العقيدة واسس الايمان ، ولمعرفة اساليب القرآن الحية وطرقه المتنوعة في ايصال الانسان — انطلاقاً من نفسه ومن الكون الذي يعيش فيه — الى الايمان بالله وبالحياة الآخرة وعرض ذلك كله عرضاً يتناسب واساليب العصر ، حتى يمكن ان تكون هذه العقيدة اساساً فكرياً ومذهبياً لجميع فروع الثقافة الفكرية في المجتمع الاسلامي ، ليمكن بذلك اعادة الفعالية والحياة الى الثقافة الاسلامية لتتمكن من القيام بدورها الحضاري .

ذلك ما حاولته منذ عدة سنوات ، وما ازال ، وانا ادرس العقيدة الاسلامية في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، ما افتأ انظر في النصوص القرآنية متأملاً ومتدبراً . وفيما اقدمه الآن جانب من هذه المحاولة استعنت الله فيه واستلهمته الرشد اعرضه لاسترشد بصائب الرأي ومخلص النقد في موضوع يتصل بحياتنا ومصيرنا الأبدي وفقنا الله للخير والرشاد .



العقيدة كما بينها القرآن

تضمن القرآن الكريم انواعاً من الحقائق منها :

١ — حقائق اساسية كبرى عرضها على الناس وأيدها بالادلة والشواهد ، ودعا الى تصديقها والايمان بها ، وكرر ذكرها باساليب شتى ، وطرق متعددة ، وهي التي تؤلف جو القرآن العام ، والاساس الذي تتفرع منه قواعده الاخلاقية ، واحكامه التشريعية ، لا تنفصل عنه ابداً . وهي القاعدة الفكرية النفسية التي اراد الله ان يقيم عليها بناء الانسان وتكوينه . ولقد دعا القرآن بالحاح الى الايمان بهذه الحقائق الكبرى ، دعا الى الايمان :

(١) **بالله خالق الكون**

(٢) **بالحياة الآخرة** التي تتجلى فيها مسؤولية الانسان ويتحدد مصيره الأبدي

(٢) **وبالنبوة والوحي** طريقاً الى معرفة الحقائق التي يريد الله ان يلقيها الى الانسان سواء اكان موضوعها عالم الغيب او حقائق ما وراء المادة ام كان توجيه الانسان وتنظيم شؤونه في هذه الحياة الدنيا .

وهذه الحقائق الاساسية هي موضوع ما سمي **بالعقيدة** او **العقائد** وان لم ترد هذه الكلمة في القرآن والسنة وانما ورد **فيها** لفظ **الايمان** . وللقرآن طريقته الخاصة في عرض هذه الحقائق وهي طريقة تصلح في آن واحد للخاصة من الناس وللجمهور وهي تختلف عن طريقة المتكلمين وسنتحدث عنها في بحثنا ان شاء الله .

٢ — وهنالك نوع آخر من الحقائق اشتمل عليها القرآن ووردت فيه على انها طريق الى النوع الاول من الحقائق ، ووسيلة للوصول اليها ، وشواهد تدل عليها . فهي ليست مقصودة لذاتها ، ولكنها تتكرر في سور القرآن في صور وأشكال شتى مرافقة للحقائق الاساسية لتأييدها ودعمها . ويشتمل هذا النوع على مشاهد الكون في القرآن بآفاقه الواسعة ، وانواع مخلوقاته المختلفة ، وحوادثه المتبدلة ، وسننه المطردة . ويشتمل بوجه خاص على حياة الانسان في خلقه وتكوينه وميوله وغرائزه وفي اجياله المتعاقبة وجماعاته .

ولئن كان هذا النوع من الحقائق ليس مقصوداً لذاته في القرآن ولم يكن كذلك علماء الكلام او العقيدة يُعنون به ، فانني ارى مع ذلك انه عظيم الشأن ويؤلف جزءاً كبيراً من

القرآن الكريم وانه كان له تأثير عميق في التفكير الاسلامي ، وطبعه بطابع علمي متحرر من الخرافة والاساطير . وان من الواجب تتبع هذه الآيات المنبثة في مختلف سور القرآن ، واستخراج ما توحيه من نظرات عامة الى الكون والطبيعة والانسان ، مع الاستعانة بما في السنة مما يعين على تفسيرها وفهمها دون تزيد ولا تكلف .

ومن جمع النوعين من الحقائق التي تضمنها القرآن نخرج بفكرة شاملة عن **نظرة الاسلام الى الوجود** : وجود **الخالق** ووجود **العالم المخلوق** : **الكون والانسان** ، **ونظرته الى الصلة بين الله والكون** ، **وبين الله والانسان** ، **وبين الكون والانسان** . ويتكون من مجموع ذلك عقيدة كاملة ونظرة شاملة تعبر عن المذهب الاسلامي او ما يسميه غيرنا بالنسبة الى المذاهب الاخرى فلسفتها العامة ، وان كنا لا نرى استعمال هذه التعابير بالنسبة الى الاسلام . وعلى هذا الاساس سنعرض العقيدة كما بينها القرآن .

١ — الدعوة الى الايمان بالله

دعا القرآن الانسان الى الايمان بالله ، منطلقاً من الانسان نفسه وبيئته بالمعنى الواسع اي من الطبيعة التي يعيش فيها والكون الذي يحيط به . وعلى هذا احتوى القرآن آيات كثيرة جداً في كثير من سوره تضمنت صوراً من الطبيعة ومشاهد من الكون ليطرح قضيتين كبيرتين :

أ- قضية **بداية الخلق** او **الخلق الاول** او **النشأة الاولى** —

وقد عبر القرآن بكل هذه التعابير — وطرح هذه القضية في مواطن كثيرة سنذكر بعضها .

ب- قضية التنظيم والتقدير اي ربط اجزاء الكون بعضها ببعض وتسييرها وفقاً لخطط مقدرة وسنن مطردة .

وفي كثير من آيات القرآن طرح للقضيتين في آن واحد للوصول بطريق مقنع الى خالق اول فطر الكون وابدعه وقدر له سننه .

الكون في القرآن الكريم :

ولنستعرض قبل طرح القضايا التي طرحها القرآن، ليوصل الانسان الى كبرى الحقائق التي تكون معرفتها كذلك ارفع انواع المعرفة من حيث موضوعها اعني الحقيقة الالهية ، لنستعرض صورة الكون وخصائصها، كما يعرضها القرآن الكريم ، تلك الصورة التي كانت مقدمة لتلك النتيجة ومنطلقاً اليها :

أ — ان الصورة التي يعرضها القرآن عن الكون **شاملة لآفاقه** كلها **جامعة لاجزائه** تضع امام الانسان آفاق الوجود في اطارها الاكبر . تعرض احياناً مفصلة الاجزاء ، من السماء بشمسها وقمرها وسائر نجومها وافلاكها ، والارض ببرها وبحرها وجبالها وسهولها وانهارها وحيوانها ونباتها وانسانها ، كما نجد ذلك في اوائل سورة النحل واحياناً بايجاز شامل وتعبير جامع كقوله تعالى : (ملكوت السموات والارض) و (ما في السموات وما في الارض)

و (في الآفاق وفي انفسهم) كما لخص هذا العالم ايضاً في كلمة واحدة هي المضاف اليه في مثل قوله تعالى (**رب العالمين**) و (**عالم الغيب والشهادة**)

وتعرض احياناً اخرى مشاهد معينة من هذا الكون ، ويشار الى جانب العظمة في خلقها وابداعها ، او في حركتها وجريانها ونظام سيرها ، ويوجه النظر اليها بشيء من الامعان والتفصيل كقوله تعالى:

(ألم ترَ أن اللهَ أنزلَ من السماءِ ماءً فسلكه ينابيعَ في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانهُ ثم يهيج فتراه مُصفَرّاً ثم يجعلُه حُطاماً . ان في ذلك لذكرى لاولى الالباب) سورة الزمر .

وقد يجمع بين الشمول والتفصيل كقوله تعالى :

(ان في خلقِ السمواتِ والارضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التى تجري في البحرِ بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فاحيا به الارضَ بعدَ موتها وبَثَّ فيهــا من كلِ دابّة وتصريفِ

الرياح والسحاب المسخّر بينَ السماءِ والارضِ
لآياتٍ لقومٍ يعقلون) . سورة البقرة

ولو اردنا ان نجمع الآيات المتعلقة بجزء واحد من اجزاء الكون كالشمس أو القمر أو الارض او النبات والزرع والحدائق والجنات او السحب والأمطار او الينابيع والأنهار والبحار او الجبال او الحيوان او الانسان او مشاهد الليل والنهار والظلام والنور والظل او الحرور لاخرجنا من ذلك مشاهد كثيرة من اروع مشاهد الطبيعة .

ب- والصفة الثانية التي يتصف بها الكون كما هو مصور ومعروض في القرآن هي **الحركة والجريان والتبدل** .

كقوله تعالى :

(وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهارَ فاذا هم مظلمون .
والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليم .
والقمرَ قدرناه منازلَ حتى عاد كالعرجونِ القديم .
لا الشمسُ ينبغي لها ان تدركَ القمرَ ولا الليلُ
سابقُ النهارِ وكلٌّ في فلكٍ يسبحون) .

أو قوله :

(وسخرَ لكم الشمسَ والقمرَ دائبين)

او قوله :

(ألم ترَ ان اللهَ انزلَ من السماءِ ماءً فسلكه ينابيعَ في الارض ثم يخرجُ به زرعاً مختلفاً الوانُه ثم يهيجُ فتراه مُصفَرّاً ثم يجعلهُ حُطاماً ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب) . سورة الزمر

أو قوله :

(اولم يرَوْا أنّا نأتي الارضَ ننقصُها من اطرافِها)

او قوله :

(والسماءَ بنيناها بأيدٍ [1] وانا لموسعون) .

وما اكثر الآيات التي تصور نمو الانسان من نطفة الى شيخ (يرد الى ارذل العمر) (خلقاً من بعد خلق) وما بينهما من مراحل كما تصور النبات في مراحل نموه آيات اخرى عديدة ايضاً .

(١) الايد القوة .



ج- والصفة الثالثة لهذه الصورة الكونية القرآنية هي (**ارتباط حوادث الكون** بعضها ببعض ارتباطاً مطرداً مما يوحي بفكرة السببية — وان كان القرآن لم يستعمل لفظ السبب بهذا المعنى — او على الاقل بفكرة الاقتران المنتظم المطرد اذا اردنا ان نكون دقيقين في نقل الصورة وذلك مثل قوله تعالى :

(ألم ترَ أنَّ الله يُزْجي سحاباً ثم يؤلفُ بينه ثم يجعلُه رُكاماً فترى الودقَ يخرجُ من خِلالِه » وقوله « وأنزلَ لكم من السماء ماءً فانبتنا به جناتٍ وحبَ الحصيد »

وفي الآية السابقة (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار . . . الى قوله : لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . . .) مثال على ذلك ايضاً .

كما يلاحظ ان القرآن الكريم لم يرد فيه تفسير حادثة كونية باسباب من غير نوعها اي باسباب غيبية وانما تذكر حوادث سابقة واخرى لاحقة تقترن بها اقتراناً مطرداً وتربط جميعها بداية ونهاية بقدرة الله الخالق .

ولعلماء الاسلام وفلاسفته كلام طويل وآراء مختلفة في موقف الاسلام من السببية لا يتسع المجال لايراده .

د- **معقولية الكون** نتيجة طبيعية لهذه الصفة ولذلك جعله القرآن موضوعاً للتفكير ومسرحاً للتأمل ومقترناً دائماً بالالفاظ الدالة على الحواس والتفكير كما انه موضوع استثمار من جهة اخرى .

الانسان :

يخص القرآن الكريم من هذا الكون مخلوقاً هو الانسان فيتحدث عنه مرات كثيرة بل يخصه بالمخاطبة لانه هو المقصود ولكنه في الوقت نفسه يشعره بموقعه من هذا الكون .

فالانسان **اولاً :**

نوع من انواع اخرى في هذا الكون يشترك معها في امور ثم يتميز عنها فهو مخلوق من تراب في الاصل (والله خلقكم من تراب) ويقول بهذه المناسبة الكسيس كاريل في كتابه (الانسان ذلك المجهول) بعد ان بين المقابلة التامة بين المواد الكيمياوية التي يتركب منها الجسم البشري والتي يتكون منها التراب بمختلف انواعه . يقول ان الانسان مخلوق من تراب بالمعنى الحقيقي الحرفي لهذه الكلمة .

وقد ورد في آية اخرى : (والله انبتكم من الارض نباتاً)

والانسان **ثانياً :**

نوع من انواع الحيوانات يدخل في تصنيفها ويشترك

معها في امور منها طريقة التناسل قال تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على اربع) وقال (ثم جعل نسله من ماء مهين)

وقال : (وما من دابةٍ في الارضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه الا امم امثالكم) .

والانسان **ثالثا** :

نوع متميز عن الحيوان كما يبدو من قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمي كما تشير الآيات اكثر من مرة الى **تسويته** (ثم سواه — فاذا سويته — فسواك فعدلك) والى جعله (في احسن تقويم)

ولا حاجة هنا الى اكثر من الاشارة الى ما قيل في اثر انتصاب قامة الانسان وانطلاق يديه في نشوء الحضارة ونموها . وتميزه كذلك من جهة **العقل والعلم** الناميين بسبب الحواس كما تشير الى ذلك الآية : (والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) والآية الاخرى (علّم الانسان ما لم يعلم) وهو علم يستطيع ان يعبر عنه (خلق الانسان علّمه البيان)

بل هو علم قابل دائماً للنمو والزيادة (وقل ربِ زدني علماً) (سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي انفسهم)

والانسان **رابعاً** :

يتميز بجانب روحي اشارت اليه آيات كثيرة كقوله تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) او قوله (ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه) وهو الجانب الذي رفع مرتبة الانسان وجعله في مقام من التكريم اسجد الله له الملائكة (ولقد كرمنا بني آدم) . وعلى تنمية هذا العنصر من الانسان بنى المتصوفة المسلمون نظرتهم في ترقية الانسان في مدارج الرقي الروحي نحو الله .

وفي القرآن بعد هذا آيات كثيرة، في ذكر نفسية الانسان وما يميل اليه من زينة الدنيا وشهواتها ، وما يضطرب فيها من مختلف المشاعر والعواطف ، وما فيه من الصراع الدائم الذي ابتدأ منذ قصة آدم ولا ينتهي الا بانتهاء قصة الانسان كلها على هذه الارض. وفيه آيات اخرى لتوجيه الانسان في هذه الميول والمشاعر وفي ذلك الصراع المحتم .

ان ما عرضناه بايجاز من صورة الكون في اطاره الواسع وما يعج به من حوادث وحركة ، وما فيه من خلق مستمر جديد وهذا الانسان المخلوق الكريم العظيم ، في مكانه وموقعه من هذا الكون ، ذلك هو المنطلق الذي ينطلق بنا القرآن منه ليطرح علينا كبرى القضايا والمسائل التي ليس لها من جواب مستساغ مقبول لدى العقل السليم الا جواباً واحداً وهو ان للكون خالقاً مبدعاً مقدراً لسننه . واليكم كيف طرحت **مسألة الخلق** والايجاد في القرآن الكريم :

— أفمن يَخلقُ كمن لا يَخلقُ أفلا تَذكَّرون ؟

جاءت هذه الآية بعد استعراض شامل لاجزاء الكون كله في سورة النحل .

— ام خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ ام هُمُ الخالقون ؟

وكلا الافتراضين مرفوض .

— ام خَلقوا السموات والارضَ بل لا يوقنون

يدعونا القرآن الكريم في مواطن كثيرة ومناسبات عديدة للنظر والتفكر في امرين :

احدهما الخلق والابداع : من خلق هذا الكون وما فيه الخلق الاول ؟ من فطره ؟ والى هذا الاشارة في قوله تعالى (فانظروا كيف **بدأ الخلق** ؟ ولقد علمتم **النشأة الاولى** — **خلقناكم اول مرة** — أَفَعَيِينا **بالخلق الاول** — الذي **فطركم اول مرة**)

وهذا ما تلفت اليه النظر آيات كثيرة منها هذه الآيات التالية :

— ان في **خلقِ** السمواتِ والارضِ **واختلافِ** الليلِ

والنهارِ والفلكِ التى تجري في البحرِ بما ينفعُ الناسَ وما انزلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فاحيا به الارضَ بعد موتها وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ بين السماء والارض لآياتٍ لقوم يعقلونَ (البقرة)

— ومن آياته خلقُ السمواتِ والارضِ واختلافُ السنتِكم والوانِكم ان في ذلك لآياتٍ للعالمين . (الروم)

— ومن آياته خلقُ السمواتِ والارضِ وما بثَّ فيهما من دابّة (الشورى)

— ان في السمواتِ والارضِ لآياتٍ للمؤمنين . وفي خَلْقِكم وما بثَّ من دابة آياتٌ لقوم يوقنون . واختلافِ الليلِ والنهارِ وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارضَ بعدَ موتها وتصريفِ الرياحِ آياتٌ لقوم يعقلون (الجاثية)

— ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له (الحج)

والامر **الثاني** الذي ينطلق بنا القرآن منه ليوصلنا الى الخالق هو **تنظيم الكون** وربط اجزائه واكمال بعضها لبعض ، وتقدير حوادثه وفقاً لسنن وخطط . والآيات في هذا الموضوع كثيرة جداً منها :

— يولجُ الليلُ في النهار ويولجُ النهارَ في الليلِ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌ يجري لاجلٍ مُسمّى (فاطر)

— ان اللهَ فالقُ الحبِ والنوى يُخرجُ الحيَ من الميتِ ومخرجُ الميتِ من الحي ذلكُمُ اللهُ فانّى تؤفكون . فالقُ الإصباحِ وجعلَ الليلَ سَكناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ... (الانعام)

— وهو الذي أنزلَ مِن السماءِ ماءً فاخرجنا به نبات كلِ شيءٍ فاخرجنا منه خضراً نخرجُ به حباً متراكباً ومن النخلِ من طلعِها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من اعنابٍ والزيتونَ والرمانَ مشتبهاً وغيرَ متشابه ، انظروا الى

ثمره اذا أثمر وينْعِه ، ان في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون (الانعام)

— وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌ يجري لاجلٍ مسمّى يُدبّرُ الامر يُفصّلُ الآياتِ لعلكم بلقاء ربكم تؤمنون . وهو الذي مدّ الارضَ وجعل فيها رواسيَ وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجينِ اثنينِ يُغْشِي الليلَ النهار ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون . وفي الارض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من اعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوان يُسقَى بماءٍ واحد ونُفضّلُ بعضَه على بعضٍ في الأُكُل ان في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون (الرعد)

— ومن آياتِه انك ترى الارضَ خاشعةً فاذا انزلنا عليها الماءَ اهتزت وربت (فصلت)

— والارضَ مددناها والقينا فيها رواسيَ وانبتنا فيها من كل شيءٍ موزون . وجعلنا لكم فيها معايشَ ومن

لستم له برازقين. وان من شيء الا عندنا خزائنُهُ وما نُنَزِّله الا بقدرٍ معلوم. وارسلنا الرياحَ لواقح فانزلنا من السماءِ ماءً فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين (الحجر)

— خلق السموات والارضَ بالحق ، يُكَوِّر الليلَ على النهارِ ويُكَوِّرُ النهارَ على الليل وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌ يجري لاجـل مسمى الا هو العزيز الغفار . (الزمر)

في هذه الايات التي يلفت القرآن فيها نظر الانسان الى ما في الكون من حسن تدبير ودقة تنظيم اشارة الى عدة خصائص كل منها توصل الانسان الى فكرة الخالق المقدر المدبر منها :

أ- خلق الكثرة من الوحدة والوحدة من الكثرة كما في الآيات التالية من سورة النحل

— وان لكم في الانعام لعبرةً نُسقيكم مما في بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمراتِ النخيل والاعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً

ان في ذلك لآيةً لقوم يعقلون. واوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلُكي سُبُل ربك ذُلُلاً يَخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ الوانُه فيه شفاءٌ للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

— والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع .

ب- ومنها الخلق عن طريق النمو الذاتي كخلق الانسان :

— والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلاً ما تشكرون .

ج- ومنها الخلق المنتقل من طور الى طور بانتظام واطراد :

— فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم

من مضغة مُخلّقةٍ وغيرِ مخلقة لنبينَ لكم ونُقرُّ في الارحام ما نشاء الى اجلٍ مسمى ثم نخرجُكم طفلاً ثم لتبلغوا أَشُدَّكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُردُّ الى ارذل العُمُر لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئاً وترى الارضَ هامدةً فاذا انزلنا عليها الماء اهتزتْ وربتْ وانبتتْ من كل زوج بهيج . (الحج)

— الله الذي خلقكم من ضَعف ثم جعل من بعد ضَعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير (الروم)

د. ومنها ترتب امر على آخر او حدوث امر عقب حدوث امر آخر بانتظام مستمر :

— وانزلنا من المُعصِرات ماءً ثجّاجاً لنخرجَ به حباً ونباتاً (النبأ)

— وأنزلَ من السماء ماءً فانبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجة (النحل)

وارسلنا الرياحَ لواقحَ فانزلنا من السماء ماء (الحجر)

وهكذا ينقلنا القرآن من **ترتيب الكون وفقاً لخطة ونظام الى ضرورة وجود خالق** قدر له هذه الخطة . وكلمة **(التقدير)** ومشتقاتها تتكرر في القرآن بمعنى في غاية الدقة وقد تأتي بعد كلمة الخلق مقترنة بها ومتممة لها لتعبرا معاً عن فكرتي الخلق اولا والتقدير ثانياً لينتقل بنا منهما معاً الى الحاجة الى خالق لاصل الشيء مقدر لسننه وقوانينه : (أم مَنْ خلق السموات والارضَ وانزلَ من السماء ماءً فانبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرَها) (النحل)

فالتقدير هو جعل الشيء موافقاً لقدر او مقدار محدد. وفكرة الكمية ظاهرة فيه فتقدير الشيء بعد خلقه تحديد شكله وصورته وحركته وغير ذلك من صفاته ولوازمه ويمكن ان نلاحظ هذه المعاني في الآيات التالية :

— والله **يُقدِّر** الليل والنهار (المزمل)

— والقمر **قدَّرْناه** منازل (يس)

— وبارك فيها **وقدَّر** أقواتَها في اربعة ايام (اي الارض) (فصلت)

— قواريرَ من فضةٍ **قدَّروها** تقديراً (الانسان)

ـــ **وقَدَّرنا** فيها السير (سبأ) ـــ من نطفة خلقة **فقدَّره** (عبس)

ـــ قد جعل الله لكل شيء **قَدْراً** (الطلاق) قال ابن كثير هي بمعنى (كل شيء عنده بمقدار) .

ولا مجال للشك في ان لفظ المقدار الوارد في الآية التالية هو بمعنى الكمية كما يدل على ذلك سياق الآية :

(الله يعلم ما تحمل كلُ انثى وما تغيضُ الارحامُ وما تزداد **وكلُ شيء عنده بمقدار**) . (الرعد)

وكذلك لفظ القدر بمعنى المقدار :

ـــ وما نُنَزّلهُ الا بقَدَر معلوم ـــ الى قَدَر معلوم ـــ

ولكن ينزل بقَدَر ما يشاء ـــ

ـــ فسالت اودية **بقَدَرها** .

وفي ضوء هذه الآيات نفهم معنى كلمة (التقدير) و(القدر) في لغة القرآن . في مثل قوله تعالى :

وخلق كلَ شيء **فقدره تقديراً** (الفرقان)

ـــ انا كل شيء خلقناه **بقدر** (القمر)

وعلى هذا فليس (القَدَر) الا هذه الخطة التي قدرها الله

للمخلوقات قبل خلقها وتلك السنن التي اجراها عليها في تبدلاتها واطوارها وسائر نواحي وجودها ثم (قضى) بتنفيذها على المخلوقات .

فالله **خلق** المخلوقات **وقدر لها** خطتها وسننها **ثم هداها** ووجهها للسير وفق تلك الخطة المرسومة والسنة المقدرة :

ـــ خَلَقَه فقدَّره ثم السبيلَ يَسّره

ـــ الذي خلق فسَوَّى والذي قَدَّر فهدى

ـــ اعطى كلَ شيءٍ خَلْقَه ثم هدى

وعلى هذا **فسنن الكون واسبابه مخلوقة لله** ، فلا منافاة بين البحث عن هذه (السنن) او (القوانين) والاعتقاد بخالق لها ، ولا بين الاعتقاد باقتران المقدمات بالنتائج او ترتبها عليها والايمان بالله باعتباره خالقاً للمقدمة السابقة والنتيجة اللاحقة وما بينهما من ارتباط على كيفية مخصوصة . ولذلك لم يحدث هذا التناقض في العقلية الاسلامية بين الايمان والتفكير العلمي . ولو صحت (سنة التضاد) في الجدل الماركسي لكانت جزءاً من المخطط الالهي اي مخلوقة لله وليست بديلا عن وجوده .

الله خالق الكون :

من هذا المنطلق ، من الكون في آفاقه الواسعة ، ومخلوقاته

المتنوعة ، وتنظيمه الخاضع لسنن ، من الانسان نفسه ، في خلقه وتكوينه ، وفي نفسه العجيبة التي تخفي غرائز وميولاً متنوعة وحالات مختلفة ، وفي جماعاته المختلفة الالسنة والالوان والقبائل والشعوب المتعاقبة خلال العصور امما واجيالاً ، من هذا كله يوصلنا القرآن الى الايمان بوجود الله الخالق البارىء ، القادر الحي ، العليم الحكيم ، العلي العظيم ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء ، والى الايمان بصفات يستلزمها الاستنتاج المنطقي في كل موطن يقف بنا فيه وفي كل شاهد كقوله تعالى :

— **وخلق** كل شيء وهو بكل شيء **عليم**

— (واسروا قولكم او اجهروا به انه **عليم** بذات الصدور ، **ألا يعلم من خلق** وهو اللطيف الخبير) (الملك) — (ولقد **خلقنا** الانسان **ونعلم** ما توسوس له نفسه) .

— والله **خلق** كل دابة من ماء فمنهم . . . ومنهم . . . ان الله على كل شيء **قدير** (النور)

فخلق الاشياء وتقدير سنتها يقتضي **القدرة** كما يقتضي **العلم** بها وبخفاياها وتملكها والهيمنة عليها والتحكم بها وبمصيرها فالكون منقاد لمشيئته (كل له قانتون) وعليه انبسط ملكه وسلطانه (وسع كرسيه السموات والارض) وكذلك الذي **يحيى ويميت** والذي قدر سنة الحياة والموت للمخلوقات لا بد ان يكون **الحي** على الوجه الاكمل . واذا

كان السمع ادراك الاصوات والبصر ادراك المرئيات فالله خالق الاصوات والمرئيات وخالق حاستي السمع والبصر لعدد من مخلوقاته فهو اجدر بان يتصف بهاتين الصفتين على الوجه الاكمل بل ادراكه لمخلوقاته اوسع من ان تعبر عنه اللغة الا على وجه التقريب (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار)

وهكذا يبث القرآن خلال دعوته المقنعة الى الايمان بالله الخالق الصفات التي يتصف بها من القدرة والارادة والعلم والحياة والوحدانية وسائر صفاته تعالى .

طريق القرآن في عرض الحقيقة الآلهية وفي الدعوة الى الايمان بالله :

ان طريق القرآن العظيم في دعوة الانسان الى الايمان بالله خالق الكون متعددة المسالك :

١— فهو تارة يخاطب **عقله** ويقنعه بالمنطق ويقدم له الدليل في اسلوب حي جذاب كقوله تعالى في سورة الواقعة :

نحن خلقناكم فلولا تصدّقون . أفرأيتم ما تُمْنُون . أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون . نحن قَدَّرنا بينكم الموتَ وما نحن بمسبوقين . على ان نُبدِّل امثالَكم

ونُنْشِئَكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأةَ الاولى
فلولا تذكَّرُون . أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه ام
نحن الزارعون . لو نشاء لجعلنــــاه حُطاماً فظَلْتم
تَفَكَّهون . انا لَمُغْرَمون بل نحن محرومون .
أفرأيتم الماءَ الذي تشربون أأنتم انزلتموه من المزن
ام نحن المنزلون . ولو نشاء جعلناه أُجاجاً فلولا
تشكرون . أفرأيتم النارَ التي تُورون . أأنتم انشأتم
شجرتها ام نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً
للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم .

وهذا الاسلوب المنطقي يتصف ايضاً بالحيوية لما فيه من **الاسئلة الموجهة الى المخاطب** والاجابة عنها الى ان يصل الى النتيجة المطلوبة التي بدىء بها لايراد الدليل عليها مع تعدد الامثلة المأخوذة من حياة الانسان وما يحيط به .

وجميع الادلة المعروفة في علم الكلام وفي فلسفة ما وراء الطبيعة مبثوثة في القرآن ، ولكن بطريقة حية ، وباسلوب يمكن ان تفهمه الخاصة والعامة ، كل بقدر طاقته ، كما يشير الى ذلك الشاطبي في موافقاته ، وكما يذكر ابن رشد في (مناهج الادلة في عقائد الملة) فلو جمعنا ادلة المتكلمين في الوحدانية لما خرجت عن هذه الآيات :

— وما كان معه من آله اذاً لذهب كلُ آله بما خلق ولَعَلا بعضُهم على بعض .

— لو كان فيهما آلهةٌ الا اللهُ لفسدتا

— قل لو كان فيهما آلهةٌ كما يقولون اذاً لابتغَوْا الى ذي العرش سبيلاً .

— ام جعلوا لله شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابه الخلقُ عليهم .

وفي قصة ابراهيم في (سورة الانعام) انتقال منطقي من افول الكواكب الى حاجتها الى خالق يبدل ولا يتبدل والى من يقدر لها هذه السنة التي تخضع هي لها وكذلك نقاشه مع قومه في (سورة مريم) .

ومن هذه الطرائق المنطقية طريقة تعرف في الرياضيات بتمديد الخط البياني . (extrapolation) فاذا امكن معرفة جزء منه امكن معرفة باقيه واستخراج المعادلة المعبرة عنه فاستمع الى هذه الآيات التالية :

— الذي خلقني فهو يهدين ، والذي يُطعمني ويَسقين ،

واذا مرضت فهو يَشفين ، والذي يُميتني ثم يحيين ،
والذي أطمعُ أنْ يَغفرَ لي خطيئتي يوم الدين
(الشعراء)

— أيحسبُ الانسانُ أن يُتركَ سُدًى ألم يك نُطفةً من
مَنِيٍّ يُمْنَى ثم كان علقةً فخلَقَ فسَوَّى فجعل منه
الزوجين الذكرَ والأنثى ، اليسَ ذلك بقادرٍ على
انْ يُحييَ الموتى . (القيامة)

— ومثلها في سورة الحج :

يا أيها الناسُ إنْ كنتم في ريب من البعث فانا
خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم من
مُضْغةٍ مُخلَّقةٍ وغيرِ مُخلّقةٍ لنبيّنَ لكم ونُقِرُّ في
الارحامِ ما نشاءُ الى اجلٍ مُسمّى ثم نُخرجُكم
طفلاً ثم لِتبلغوا أَشُدَّكم ومنكم من يُتوَفّى ومنكم
من يُرَدُّ الى ارذلِ العُمُرِ لكيلا يَعلمَ من بعد علمٍ

شيئاً ، وترى الارضَ هامدةً فاذا انزلنا عليها
الماءَ اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كل زوجٍ بهيج
ذلك بان اللهَ هو الحقُ وانه يحيي الموتى .

٢– ولكن **الاسلوب المنطقي** الذي نراه جافاً مجرداً عند المتكلمين والفلاسفة يمتزج في القرآن الكريم بالاسلوب العاطفي الحي دون ان يدخل الضيم على قوة ادلته وصحة براهينه .

فالقرآن يخاطب الانسان ويثيره عن طريق **منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته** وعن طريق **قضاياه ومشكلاته** ليحرك تطلعه وقلقه الى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ومصيره البعيد وبجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله ومستعداً لقبول نتائج المنطق المنسجم مع منفعته .

ويبدو هذا واضحاً في الآيات التالية :

— وهو الذي جعل لكم الليلَ لباساً والنومَ سُباتاً
وجعل النهار نشوراً . وهو الذي ارسل الرياح
بُشْراً بين يديْ رحمته ، وانزلنا من السماء ماءً
طهوراً لنحييَ به بلدةً ميتاً ونُسقِيَه مما خلقنا انعاماً
واناسيَّ كثيراً . (الفرقان)

— وآيةٌ لهم الارضُ الميتةُ احييناها واخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ واعنابٍ وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره ، وما عملته ايديهم ، افلا يشكرون . (يس)

— والله جعل لكم من بيوتكم سَكَناً ، وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تَسْتَخِفّونها يوم ظَعْنِكم ويومَ اقامتِكم ، ومن اصوافِها وأوبارِها واشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين . والله جعل لكم سرابيلَ تقيكم الحرَ وسرابيلَ تقيكم بأسَكم ، كذلك يُتمّ نعمتَه عليكم لعلكم تُسلِمون . فان تولَّوْا فانما عليك البلاغُ المبين . يعرفون نعمةَ اللهِ ثم ينكرونَها واكثرُهم الكافرون (النحل)

لقد أخذ القرآن الانسان من **مواطن اهتمامه** في هذا الكون، ومظان منفعته ، ونقله منها الى الخالق المنعم ، فاكسبه بذلك القناعة بمنطق العقل ، والشعور بصلته بالمنعم ، ليخامر ايمانه

النفس فكراً وعاطفة . و (القلب) في القرآن يستعمل لهما معاً متصلين غير منفصلين (١) (كتب في قلوبهم الايمان)

من خلال القضايا الاجتماعية :

وخلافاً كذلك للطريقة المجردة الجافة عرض القرآن لعقيدة الايمان بالله واليوم الآخر من خلال **قضايا الانسان الاجتماعية الكبرى** وفي مقدمتها **تحرير الانسان من العبودية للبشر** في المجالين السياسي والاقتصادي . وقد وردت سورة طويلة بكاملها تدور حول هذين المحورين : التحرر من سلطان التأله السياسي والتحرر من سلطان التأله المالي وهي سورة القصص التي تبرز فيها شخصية (فرعون) القائل (يا أيها الملا ما علمت لكم من إله غيري) و (قارون) الذي (كان من قوم موسى فبغى عليهم) وكان الهلاك مآل فرعون وقارون ، وكان البقاء لله وحده . وبهذه الفكرة تنهي السورة قصة المتألهين على الناس فتنتهي بنا بقوة الى **عقيدة التوحيد والايمان بالله وحده** في هذه الآية الخاتمة للسورة :

ولا تدعُ مع الله **إلهاً آخر ، لا إلهَ الا هو ، كلُ شيءٍ هالكٌ الا وجهه ، له الحكمُ واليه ترجعون .**

وكذلك التحرر من العبودية للبشر في المجال الديني :

(١) ففي الكتاب الكريم: (افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذن يسمعون بها) (وقلوبهم منكرة) . وفيه من جهة اخرى (قست قلوبهم) و (تخشع قلوبهم) .

عليم . ذلكم اللهُ ربكم لا آله الا هو خالقُ كلِ شيءٍ فاعبدوه . (الانعام)

ينقله من الاقرار بالله الخالق الى تعداد نعمه لشكرها :

أفمن يَخلقُ كمن لا يَخلقُ افلا تَذكَّرون . وإن تَعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم .
(النحل)

لاحظ في الآيات التالية من سورة الحج الانتقال من لفت النظر الى قدرة الله وعلمه وصفاته الى الدعوة الى عبادته :

يا أيها الناسُ ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له ان الذين يَدعُون من دونِ الله لن يَخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وان يَسلبهم الذبابُ شيئاً لن يستنقذوه منه ضعف الطالبُ والمطلوب . ما قَدَرُوا اللهَ حق قَدْره ، ان الله لقويٌ عزيز . اللهُ يَصطفي من الملائكةِ رسلاً ومن الناس ، ان اللهَ سميعٌ بصير . يعلم ما بينَ أيديهم وما خلفهم ، والى اللهِ تَرجعُ الامور .

يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربَكم وافعلوا الخيرَ لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده .

وهنا يبدو الفرق البعيد والهوة السحيقة بين العقيدة النظرية في الفلسفة الالهية (الميتافيزيك) وعلم الكلام وبين العقيدة الحية في القرآن التي تعقد بين الله والانسان صلة تتصف بالنماء والزيادة والقوة .

وما اكثر الالفاظ المعبرة عن صلة الانسان بالله في القرآن مثل **يسبّحون ويخافون ويرجون ويستغيثون ويحبون ويدعون ويشكرون ويخشعون** .

الصفات :

وهنا يبدو لنا جانب هام جداً في العقيدة القرآنية او الايمان القرآني هو ان **لصفات الله** المنبثة في القرآن الكريم **ايحاءاتها في نفس المؤمن** فالله رحيم **ترجى** رحمته ، ومنعم **تشكر** نعمه ، وعَفُوٌّ يقبل **التوبة** من عباده ، وقدير **تبعث على التفكير** قدرته ، وعظيم **يسجد** لعظمته ، **ومجيب** يوجه اليه الدعاء ، **وقوي** يستعان به ، واذا سمع المؤمنون كلامه يتلى عليهم **يخرون** للاذان **يبكون** ويزيدهم **خشوعاً** ، وهو حاكم **يلجأ** الى عدله ، وآمر **يطـاع** امره ، ومالك الملك **تبتغى**

مرضاته ، هو الحي فادعوه مخلصين له الدين[1] ، واسألوا الله من فضله .

وهكذا يبدو لنا (الايمان القرآني) اوسع مدى واعمق غوراً من (العقيدة) بمعناها النظري وفي صورتها المنطقية ويبدو لنا كذلك ان علماء الكلام اقتصروا على الجانب العقلي المنطقي الذي لا يستوعب (الايمان القرآني) ووقفوا عند ساحل بحر خاض لجته المتصوفون ، أعني الذين التزموا منهم حدود الاسلام ولم ينحرفوا عن اتجاهاته الواضحة في الكتاب والسنة — فلم ينعزلوا عن معركة الحياة ولا دعوا الى زهد الهنود ورهبانية النصرانية ولكنهم ارتقوا بالانسان في معارج القدس الى من نفخ فيه من روحه ، ولم يقتصروا على مظاهر العبادة والاعمال .

لقد كان لذكر الله وصفاته في القرآن ، ولهذا العرض العميق من خلال الكون والانسان ، ولذلك الخطاب الموجه الى الانسان نفسه ، في أعز عواطفه ومشاعره وأخص منافعه ورغباته ، اثر نفسي عميق في نفوس الجيل الاول من الصحابة وفي نفوس الذين ساروا على اثرهم ، فلم يفصلوا علمهم بالعقيدة عن العمل ، ولا الايمان عن العبادة ، ولا العبادة عن التفكر في آيات الله ، في الآفاق وفي انفسهم .

(١) الدين اي الخضوع والطاعة

العقيدة القرآنية وآيات الاخلاق والاحكام :

وامر آخر ايضاً يلفت النظر ويستحق العناية وهو ان جو العقيدة القرآنية او الجو الايماني يغمر كل ما في القرآن من قواعد الاخلاق واحكام التشريع . فان معاني الايمان بالله ومراقبة صفاته المناسبة للموضوع المطروح مبثوثة في جميع آيات الاخلاق والتشريع .

فآيات الانفاق في اواخر سورة البقرة وهي اربع عشرة آية اشتملت على بضع وثلاثين كلمة تدل على الله وصفاته عدا عن الافعال كقوله تعالى : (مثلُ الذين ينفقون اموالهَم في **سبيلِ الله** كمثلِ حبةٍ انبتت سبعَ سنابلَ في كل سنبلةٍ مئةُ حبة ، **واللهُ يضاعفُ لمن يشاء واللهُ واسعٌ عليمٌ**)

وفي **آية الدَيْن** الواردة بعد ذلك ، والمحتوية على قواعد تشريعية دقيقة ، تعابير ايمانية تربطها بالعقيدة مثل : (ولايأب كاتب ان يكتب كما علمه الله) (ولْيتَّقِ اللهَ رَبه ولا يبخسْ منه شيئاً) و (ذلك اقسطُ عند الله) و (اتقوا اللهَ ويُعلِمُكم اللهُ واللهُ بكلِ شيءٍ عليم)

ان الاخلاق والاحكام في القرآن مشوبة بآيات العقائد ومشربة بها ، وان كانت لها خصائصها الموضوعية التي تجعلها قابلة للدراسة منفصلة ، ولكن هذا التلاقي والتداخل يجعل القرآن

وحدة متنوعة وكثرة تنظمها وحدة تقابل الحياة الانسانية في وحدتها وتنوعها .

* * * * * *

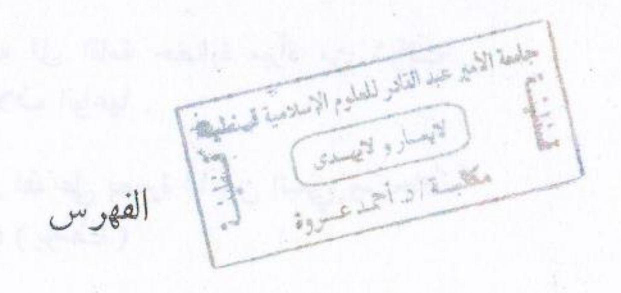
تلك صورة للعقيدة القرآنية او لجانب منها حاولنا بقدر الامكان استخراجها واقتصرنا على (**الايمان بالله**) وتتمها (**عقيدة الايمان بالجزاء والمسؤولية في الحياة الاخرة**) وهي متصلة اشد الاتصال بعقيدة الايمان بالله، وبهما معاً تنتج اثارهما في الحياة الانسانية، وانتجت فعلاً في حضارة الاسلام التي لم تنشأ حضارة اشمل منها واكمل ولا اسمى وارفع .

ومما عرضناه تبين لنا كيف ان (**الايمان القرآني**) اوسع بكثير واعمق من (**عقيدة المتكلمين والفلاسفة**)، وكيف ان كتب العقائد وعلم الكلام اثارت ولا تزال تثير مسائل مضى زمانها وليست هي من صميم (العقيدة القرآنية)، كمسألة الذات والصفات وتصنيفاتهم للصفات وما الى ذلك من مسائل لم يعن بها الجيل الاول ولا التفت اليها القرآن، وليست هي كذلك بالنسبة الى الفكر الحديث ذات شأن . لذلك يجب ان نعيد النظر من جديد في **طريق بث الايمان القرآني وفهم العقيدة القرآنية** وعرضها على الناس عرضاً مستمداً من القرآن العظيم ، مستساغاً عند الخاصة والعامة ، ليعود القرآن الى دوره العظيم في تحريك النفوس

والارتفاع بالانسان ودفعه الى اقامة حضارة مبرأة من شوائب المذاهب المادية على اختلاف انواعها .

(قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسُبحانَ الله وما انا من المشركين) (يوسف)

(ان هذا القرآن يدعو للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين) (الاسراء)


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
لا يعار و لا يهدى
مكتبة أ.د. أحمد عروة

الفهرس